

قدر العنصرة بين العبث والتقديس

"إن القديسين أجمعين بالإيمان عملوا البرّ..."

رتبت الكنيسة المقدّسة أن نحتفل، في الأحد الأوّل بعد العنصرة وحلول الروح القدس، بعيد جميع القديسين، وذلك إشارة إلى عمل الروح القدس وأولى ثماره، وهي تقديس المؤمنين، وخاصة في الأزمنة المسيانيّة-المسيحيّة التي بدأت مع موت وقيامّة المسيح (أع ٢، ١٦-٣٨). الروح يسكن فينا ويقدّسنا "ويطهرنا من كلّ دنس". إنّ مفهوم القداسة في العهد الجديد مرتبط مباشرة بيوم العنصرة، يوم حلول الروح القدس.

لكن عمل الروح وتقديس الناس ليس قوّة سحرية تنسكب على المؤمنين من الخارج، بل هو عمل يتطلّب أمرين معاً، نعمة من الله وطهارة من البشر. إنّ القداسة أمر متّصل بسرّ الله من جهة، فهو القدوس والمقدّس، وبنا نحن المقدّسين من جهة ثانية، من خلال العبادة والسلوك. لقد خرج الزارع ليزرع، وبذر على كلّ ناحية وكلّ أرض، لكن لم ينبت كلّ الزرع، فهناك أرض صخرية وهناك أخرى ملآنة بالأشواك، كما هناك الأرض الصالحة. فكما هناك روح الله هناك حرية الإنسان. "لا تطفئوا الروح" لأنّ الروح لا ينسكب بالإكراه وإنّما يحلّ علينا بالخيار.

كان اسم قديس في العهد القديم مقصوراً على الأنبياء وبعض المختارين. ولكن العهد الجديد يعمّم هذا الاسم على جميع المسيحيين، لا للتخفيف بمعناه ولكن للإشارة بدقّة إلى معنى مسيحيّ: أي قديس. هكذا يطلق سفر أعمال الرسل هذا الاسم على الجماعة الأولى في أورشليم وتلك التي كانت مجتمعة يوم العنصرة (٩، ١٣)، ويعمّمه بولس على كلّ المؤمنين (رو ١٦، ٢٢؛ ٢ كور ١، ١).

لكن هذه التسمية (قديسين) تتطلّب من المسيحيين قطع الصلة بالخطيئة والتصرّفات الدنيوية (١ تسا ٤، ٣). لهذا يتابع هنا بولس الرسول قائلاً: "فلنلق عنا كلّ ثقل والخطيئة المحيطة بنا بسهولة"، من جهة أولى. من اعتمد بالروح والماء ابتعد عن محيط الخطيئة. لا يمكننا أن نعبد ربّين. القداسة ليست تسمية بل مسلكيّة.

إيمان القديسين ظهر من أعمالهم. فهنا يعدد بولس إنجازات وتقدمات بعض القديسين من العهد القديم. لقد واجهوا الملوك وقهروا الممالك، سدّوا أفواه الأسود كدانيال وتعرضوا للسيف وعذبوا بقطع وتوتير الأعضاء والضرب، ولم يقبلوا بالنجاة ليحصلوا على قيامة أفضل. ذاقوا الهزء والجلد والقيود والسجن، رُجموا، نُشروا، طُردوا... ولم يتخلّوا عن إيمانهم. لقد دفعوا ثمن هذا الإيمان كل حياتهم. يُعرف الإيمان من أعماله (غل ٥، ٦)، وهذا هو اختبار الإيمان الحقيقي عن الإيمان السطحيّ. في إيمان سطحيّ لا يعمل الروح القدس. الروح القدس شريكنا وليس مسيرنا! الروح القدس يسكب نعمته على حجم أتعابنا. فمن يُلقى للأسود شهادةً يسدّ بالروح أفواهها. إنّ زمن الراحة (الكسل) هو زمن مسروق من الروح. لهذا من ناحية ثانية، بعد أن يطلب بولس منا أن نبتعد عن محيط الخطيئة أولاً، يقول: "ولنسابق بالصبر في الجهاد الذي أمامنا". لا يكفي أن نؤمن، ولا أن نرفض الخطيئة بل يجب أيضاً أن نسابق بالجهاد مقتدين وناظرين إلى رئيس الإيمان (الجهاد) ومكمله يسوع.

"ما المنفعة يا إخوتي إن قال أحدٌ إنّ له إيماناً ولكن ليس له أعمال. هل يقدر الإيمان (السطحيّ) أن يخلّصه؟ هكذا الإيمان دون أعمال ميت بذاته. أرني إيمانك بدون أعمالك وأنا أريك بأعمالي إيماني!"

"القديسون يدينون العالم" (١ كور ٦، ٢) لأنهم يشرحون إيمانهم من أعمالهم. أمّا العالم - سائر الناس بالإيمان السطحيّ- فيدينهم إيمانهم هذا بدون الأعمال! لا تكفي العبادة لله إن لم تقترن بالطاعة له!

الإيمان يفرزنا. كلمة قديس تعني مخصّص أو مميّز، بمعنى القطع والفصل عن كل شيء عاديّ. من يتقدّس هو من يبتعد عن "الخطيئة المحيطة بنا بسهولة". ولكن من يتقدّس يجتهد أيضاً بالصبر والأعمال والأتعاب لكي يصير هيكلًا للروح وإناء قابلاً لسكب نعمته. بقدر ما نظهر أنفسنا بقدر ما نستدعي الروح القدس ونعمته؛ ويتحقّق فينا من قداسة الله قداسة.

كلّنا مؤمنون بشكل أو بآخر. لكن خيار القديسين كان حياة التقديس بالأتعاب، أمّا خيارنا مرّات عديدة فتعتمد على إيمان دون طهارة في المحيط ودون جهاد وهكذا خيار لا يقدر. إنّ الروح يسكب نعمته علينا جميعاً فيستدعينا إلى "الفرز" وإلى "الجهاد". فمن ابتعد عن الخطيئة كرامة للروح ومن سار شوطاً في الأتعاب بالصبر أكرم سكب الروح عليه. أمّا من خلط بين الروح والدنيا أهانه، أو نال الروح وسكن للكسل أيضاً طرده!

قدّر العنصرة وسكبُ الروح في خيارنا، الروحُ شريكنا يستنهضنا إلى العفة والأتعاب، يشاركنا حين نسعى لكنّه لا يجبرنا ولا بالسحر يبدّلنا! بين العبث وبين التقديس يقع حدث العنصرة. بعض يختاره للتقديس، وآخرون يتهاونون فيه ويرمون نعمته للعبث.

لهذا سيدين القديسون العالم. لا يحقّ لإنسان أن يتعلّل ما دام بشر من بشرته فتحوا صدورهم شراعاً لهبوب الروح القدس، وهو مال عن مهبّ الروح إلى اللذات أو الكسل أو أيّ وثن.

لقد انسكبت البارحة في الأحد الماضي نعمة الروح القدس وهي تنسكب كلّ حين في أسرار الكنيسة علينا. وهذا الأحد تضع الكنيسة أمامنا كلّ هذه السحابة من الشهود (على قدرة الروح في ضعف البشر) الذين قهروا الممالك وسدوا أفواه الأسود ونالت نساء منهم أمواتهنّ القيامة... وذلك كما يفعل بولس في ختام الرسالة اليوم ناصحاً أن نكون "ناظرين إلى رئيس الإيمان ومكمّله يسوع" في جهادنا فلا نتهاون بل نكرم الروح المنسكب علينا فيصير لا لدينونة بل لتقديسنا كالقديسين، أمين.